الفصل الحادى والأربعون

أوصاف مدينة ميناء بولاق المشهورة فى الآفاق

الوصول إليها بالاتجاه من مدينة القاهرة غربا خلال ساعة عبر الحدائق. إنها مدينة عظيمة على ضفة النيل، وبلاق فى اللغة العربية بمعنى ( )[1].

وهى مدينة يمتد عمرانها طولا من الجنوب إلى الغرب ألفين وخمسمائة قدم، وعرضها فى بعض المواضع سبعمائة قدم والبعض الآخر ثمانمائة قدم وبعض آخر ثلاثمائة قدم، وخمسمائة قدم. إنها مدينة متراحبة الأرجاء، ولوقوعها على ضفة النيل فهى مرفأ معمور، وبينها وبين مدينة القاهرة بساتين وحقوق وافرة المحصول.

ويحكمها من يعرف بـ (رسالة أغاسى) أى أغا الرسالة من قبل الوالى، ويعاونه مائة من رجاله، ويتعين عليه أن يرسل إلى الباشا سنويا عشرين كيسا، كما أنه يحصل لنفسه عشرين كيسا مصريا.

ومن هذا الميناء وحتى دمياط ورشيد وإسنا وأسوان ١٠٠٠٠ سفينة مختلفة الأحجام مسجلة فى دفتر أغا الرسالة، وجميع رؤساء هذه السفن تحت نفوذه، ويحملون الغلال الأميرية من الصعيد العالى ويخزنونها فى (أنبار يوسف) أى مخزن يوسف، وهذه هى مهمة حاكم مدينة بولاق.

أما معرف البحرين فهو صاحب السيطرة على جميع القوارب، وتمضى السفن إلى ولاية الصعيد بدفاتره وتأتى من هناك بالغلال وهو نائب قاضى عسكر مصر يعاونه ثلاثمائة من رجاله، ومن قبل دفتردار مصر يحصل أمين الجمرك المال السلطانى مع مائتين من رجاله وهو ملتزم بتوريد كيس عن كل يوم. وهو يباشر مهامه من تكية عظيمة للانكشارية مواجهة للجمرك، وفى معيته ضابط من أوجاق الانكشارية

(١) بياض فى الأصل.

وچورباجى، وقد إزدانت جميع جدران هذه التكية بأنواع السلاح، إنها تكية (حاجى بكتاش ولى)[1]. وكل بك من بكوات مصر له مائة من الأتباع ينتظر أن يرقى إلى (قول)، وبعد شهر يحل محله بك آخر.

وتضم هذه المدينة ٤٥ حى، فيها ٦٧٠٠ منزل عال، و٣٦٠ محرابا، و٥٦ جامعا تتلى فيه الخطبة.

جامع السلطان الملك الظاهر

أعظم الجوامع الواقعة فى السوق السلطانية، ويؤمه خلق كثير، وبه ٣٢ عمودا من الرخام تحمل سقفا ذا زخارف وكأنها زخارف (كتاب مانى)، وله منبر محلى بالصدف، وعلى محرابه المنقوش كتب بخط مذهب ولازوردى قوله - عز من قائل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. وهذه الآية منقوشة على الرخام بخط ياقوت المستعصمى، وتحت هذه الآية كتب كذلك على الرخام: «أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر بن محمد بن جيقمق بن أبى سعيد الفقير رحمة الله عليه».

وحرم هذا الجامع مرصوف بالرخام الخالص، وله ثلاثة أبواب، ومنارة من ثلاث طبقات، وبعد هذا الجامع على شاطئ النيل.

جامع سنان باشا

إنه جامع له قبة حجرية مكسوة بالرصاص على الطراز التركى، ومحرابه ومنبره غاية فى مهارة صنعته، وتبلغ مساحته ١٥٠ قدم فى مثلها، وعلى صُفاته الجانبية من الخارج قباب مغطاه بالرصاص من أسفلها إلى أعلاها. وإن لم يكن هذا الجامع مزينا بالرخام مختلف الألوان كسائر جوامع القاهرة إلا أنه مبنى لطيف، إذا ما شاهده معماريو القاهرة

(١) من أولياء الترك الذين عظمت لهم المنزلة عندهم فى زمن الأمير أورخان ومراد الأول، وقبره مزار، وهو الذى صحب إليه السلطان أورخان طائفة من الجند كان قد ألفها؛ فمسح حاجى بكتاش على رأس أحدهم بكمه ودعا لهم، وسماهم «يكى چرى»، وهم الذين عرفوا فيما بعد بالانكشارية، وكانوا يلبسون قلنسوة بيضاء يتدلى منها ما يشبه كم حاجى بكتاش.

أعجبوا به وتساءلوا قائلين: كيف استطاع معماريو الترك أن يبنوا مثل هذه القبة، لأن معظم قباب القاهرة مبنية من خشب السنط، وهى إما أسقف أو كقبة جامع (جان بولاد زاده) قبة صغيرة من حجارة يبلغ حجم كل حجر منها شبرا، أما قبة سنان باشا هذه فبناء عال جميل يمس الفلك، ولوقوع الجامع على ضفة النيل ليس له حرم، ولكن بجانبه ميضأة ذات صنابير. وله منارة من طبقة واحدة على الطراز التركى، وأمامه حديقة ذات نخل وأزهار، وهذا الجامع الآن جامع جميل، له أوقاف عظيمة.

جامع زرقداس

إنه جامع أرضى يقع أمام تكية الكلشنى، لا حرم له، إلا أنه يصلى فيه خلق كثير، وله منارة منخفضة.

وجامع الاستدارية، وعلاوة على هذه الجوامع يوجد ١١ مدرسة، و٦ دور للقراء، و٣ للحديث، وأربعون مكتبا للأطفال، و٦ تكايا للدراويش ومنها تكية الكلشنى العلوية على ضفة النيل، ويسكنها ثلاثون من المتبحرين فى العلوم واستناروا بإبراهيم الكلشنى فتحققت لهم السعادة وأصبحت لهم أرواح العارفين بالله، وكل منهم متصوف جليل، حتى إنهم فى أيام الاحتفال بمولد السيد أحمد البدوى يضيفون أعيان مصر فى تكيتهم يومين وليلتين، ويقيمون المولد النبوى، وهم شبابا وشيوخا من العشاق، هم يقومون على خدمة ضيوفهم فى تواضع. وفى الصباح يمضون فى موكب قوارب البدوى العظيم. إن تكية إبراهيم الكلشنى هذه تكية عظيمة.

وفى مدينة بولاق ٧٣ من الخانات الصغيرة والكبيرة، وكل منها كالقلعة ذات باب حديدى، وفيها مائتان أو ثلاثمائة حجرة، فى كل حرم من أحرامها زاوية. وأعظم هذه الوكالات: وكالة الزيت، ووكالة النطرون، ووكالة سنان باشا، ووكالة القره مانلى، ووكالة النحاس، ووكالة النقل، ووكالة ذى الفقار كتخدا، ووكالة قيصر لى إبراهيم كتخدا، ووكالة قول قران . . . ، ولهذه الوكالات ذائع الشهرة فى الآفاق.

هذه هى الخانات الضخمة التى تشبه القلاع، والخانات الأخرى يتألف الواحد منها من مائة حجرة أو مائة وخمسين، وفيها تجار كبار تقدر ثروة كل واحد منهم بخزانة مصرية، ولهم شركاء فى الهند، واليمن والسند، وعدن، وأوربا، وبلاد الترك.

وفضلا عن هذه الخانات فإنه يوجد مائتا مخزن للغلال على ضفة النيل، اثنا عشر مخزنا منها مخازن أميرية وفيها تحفظ غلال مكة والمدينة، فهناك الشونة الكبرى، والشونة الصغرى، وشونة الدشيشة الكبرى والصغرى، ومخزن المحمدية، وشونة المرادية، ومخزن الخاصكية، وقد أنشأت محظية السلطان محمد الرابع - فاتح قمانجه وقنديّه - مستشفى، ودار ضيافة، ومبرة لتوزيع الطعام، ولحفظ ما فيها من غلال بنى أمين الشعير مصطفى أفندى شونة عظيمة كالقلعة فى بولاق، وهو مخزن تجلب عشرة مدافع لحصاره شهرا، ومحيطه ستمائة قدم.

وفى مدينة بولاق ٦ حمامات، منها حمام سنان باشا على ضفة النيل، ويصعد إليه بسلم من ست درجات، وهو حمام جميل على الطراز التركى، وحمام ( )[1] الذى بنى حديثا، إنه حمام لطيف إلى أبعد حد ذو ماء حار، وحمام ( )[2].

وفى بولاق كذلك ٦٠٠ دكان، ولكن ليس فيها سوق للأقمشة، وسوق سنان باشا لها بابان من الحديد، وتضم ٢٠٠ دكان، ويتوسطها طريق رئيسى، وبها من كل شئ ثمين، كما أن فيها ٢٠ مقهى سلطانيا جميلا، وفيها يستريح جميع التجار، وجميع أسواق بولاق مزدحمة إلى حد جد بعيد، فهى بحر من البشر يتزاحم فيه الناس بالمناكب، لأن تجار الأقاليم السبعة يتوافدون على هذا المرفأ، ويجلبون معهم سلع وبضائع بلادهم. وفى كل عام يأتى إلى هذا المرفأ ١٠٠٠٠ من السفن والقوارب تحمل السلع من بلاد الترك، وبلاد الفونج والنيل. إنه مرفأ جميع الولايات، وكل سكان بولاق من التجار وصناعى السفن. وفى بولاق تتوفر جميع الغلال وصنوف المأكولات والمشروبات، والأخشاب. إنها مرفأ الربح والكسب.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

دار صناعة السفن السلطانية

تقع على رأس مرفأ بولاق، ويحيط بها سور كسور القلعة، ويبلغ محيطها ١٠٠٠ قدم، وهى مملوءة بأخشاب البناء، إنها مهمات أرسلها سلطان العثمانيين عتادا لليمن، وبها الأمين الذى يخضع لرياسة قبودان السويس وأربعون من الكتبة، وناظر، وعمال المخازن، والحراس، والبوابون. إنها بناء مستطيل الشكل مكشوف، وتضم ما لا يحصى كثرة من الآلات والأدوات والمهمات، كما أن فيها مخازن يقدر ما فيها بما فى خزائن مصر من مال. وتكتظ هذه الدار بآلات من النحاس والرصاص والقصدير والحديد والمسامير ومدافع وقذائف، ولها بابان مرتفعان أحدهما ينفتح على الجنوب حيث اليابسة، والآخر على ضفة النيل.

وعندما صدرت الأوامر إلى كتخدا إبراهيم باشا بغزو اليمن قدم إلى هذه الدار مرارا ليعاين هذه المهمات والمواد وأقام عند الباب المطل على النيل قصرا عظيما يستريح فيه، لا يشبهه فى بولاق إلا قصر السبتية، وأمر ببناء حجرات متعددة ومطابخ ومخازن للطعام فى ذلك القصر وكان له متعة الملوك، وأعد العدة للحرب.

قصر السبتية

يقع نهاية الطرف الشمالى من مدينة بولاق، إنه قصر عال يشبه قصر الخورنق، وفيه قاعات ذات أحواض وشادروانات، وهو قصر فخم له مطل على النيل، ويأتى إليه جميع الوزراء مرة فى كل أسبوع لتنسم النسيم العليل، لأن جو بولاق لطيف إلى حد بعيد، لذا فوجوه أهل بولاق وردية اللون، وذريتهم كثيرة، وهم يلدون التوائم بأمر الله. إنهم أهل شوق وذوق وتوحيد. وتنتشر الحدائق هنا وهناك، وسوف نذكر أولياء الله فيها وأضرحتهم.

* * *